قبريات العجم

كان الاقدمون ينقشون على نواويسهم صور مواكب الجنازة والمعارك والانتصارات والصيد ونحو ذلك من الرموز التي كان لها في خرافاتهم ومعتقداتهم شأن كبير. وكثيراً ما كانت القبور تفتح ضمناً بما فيها من الحلي ونحوها حتى كثرت الاشارة في القبريات الى عدم فتح القبور والتهديد والوعيد لمن يقدم على فتحها

وكان الرومان ينقشون على قبور الاغنياء والعظماء القابهم وبعض اعمالهم وعلى قبور الفقراء آيات حكمية فقط. ومثل ذلك كان يفعل اليونان وغيرهم

وكان بعض ملوك الفرس يحفرون قبورهم في جانب جبل او صخرة عالية وينقرون على مقدمها ما يشاكل مقدَّم هيكل لهُ ثلاث طبقات والقبر في الطبقة الثانية ويتوصل اليهِ بدرج ويغلب على الظن ان التابوت يكون من ذهب فلذلك كانت قبورهم تنهب حيثما يدوخ العدو بلادهم فاعتنوا بالاضرحة والقبور كثيراً. ومن اعظمها ما شيدهُ كورش ملكهم وهو بناء مرتفع على عروشهِ من رخام ابيض حجارتهُ كبيرة جداً وطول مقصورة التابوت فيهِ نحو ١١ قدماً وعرضها سبع اقدام ولها باب واحد لا منفذ فيها سواهُ وهناك وضعت جثة في تابوتها الذهبي وكتب على الضريح ما ترجمتهُ "انا كورش الملك العظيم الاكيمي" وكان حول الضريح اعمدة ونحوها

اما قبور المسيحيين فيغلب ان ينقش عليها الفاظ الرحمة مثل قولهم (رقد في الرب) (ولتستريح نفسك بسلام) مع اسم الميت وتاريخ وفاتهِ

وهاك امثلة القبريات عندهم على اختلافها:

من اقدم القبريات ما حفر على تاووس من المرمر اكتشف في صيداء في اوائل سنة ١٨٨٧ م [1] باللغة الفينيقية وهذا تعريب ما هو محفور عليهِ "انا تبنت كاهن عشترت ملك الصيدونيين ابن اشمنعزر كاهن عشترت ملك الصيدونيين الراقد في هذا الضريح انبه من يريد ان يفتحهُ ان ليس فيهِ ذهب ولا فضة ولا حجارة كريمة واحذرهُ انهُ اذا تجاسر وهتك ستورهُ واقلق راحتي لا يكون لهُ توفيق تحت الشمس ولا يكون لهُ راحة في قبورهِ"

ومنها ما وُجد على قبر وزير للملوك العائلة السادسة والعشرين المصرية باخط الهيروغليفي معربهُ "ان الرجل اطعم الفقير وآوى البائس وساعد المسكين ولم يأتِ في حياتهِ شرًّا وكان يرجو وهو حيّ نيل الراحة الابدية بعد الموت"

(١) نقل هذا التاووس وغيرهُ من الآثار الى متحف الاستانة العلية في السنة نفسها

ومنها ما كتب على ضريح هوميروس بطل الشعراء وقد عربتهُ بتصرف قليل

تغطي رأس هومير المقدَّس زهورٌ تجتنيها اليوم يومس
بدا مثل الاله بمعجزات بها نطق الورى والدهر أخرس

ونُقش على قبر اليونيداس الذي قتل في معركة ترموبلي بين الفرس واليونان في القرن الخامس قبل الميلاد ما معرَّبهُ " ايها المارّ في الطريق سر الى اسبرطة وأنبئ سكانها انا متنا حتا مطيعين لشرائعها "

ونصب الاثينيون لديمستين شيخ الخطباء تمثالاً من الشبهان (البرونز) حفروا على قاعدته ما تعريبهُ : " لو كانت سطوتك يا ديمستين مضارعة لقوة جنانك وفصاحتك لما استطاع مزيخ المكدونيين ان يستظهر على اليونان قطّ " سنة ٣٢٢ ق م

ولما احتضر ارخميدس الفيلسوف الرياضي (سنة ٢١٢ ق م) اوصى اصدقاءهُ ان ينقشوا على قبره اسطوانة مرسومة ضمن دائرة مع الاعداد تظهر نسبة احدهما الى الآخر

واوصى سيبيون الافريقي قبل موته في منفاهُ (١٨٣ ق م) ان يكتب على ضريحه هذه الكلمات " يا ايها الوطن الناكر الجميل انك لا تضم عظامي "

واوصى سلاًّ احد حكام الجمهورية الرومانية قبل وفاته (سنة ٧٨ ق م) أن يكتب على ضريحه ما يدلُّ على سجيته وهو " لم يحسن الي احدٌ لأ وقد اثبتهُ . ولم يظلمني احدٌ لأ عاقبتهُ "

ولما قتل بمبيوس القائد الروماني الخوار (سنة ٤٨ ق م) وأُحرقت جثتهُ دفن رمادهُ في الشاطئ ونُصب عليه حجر كتب عليه بفخمة " بمبيوس الكبير "

ولما حضر الموت انوشروان العادل امر ان يكتب على تابوته " ما قدَّمناهُ من خير فعند من لا يبخس الثواب وما كسبناهُ من شرّ فعند من لا يعجز عن العقاب "

ونظم شاعر لاتيني قديم قبرية لاولاد عرَّبتها بقولي :

ان هذي القبور ضمَّت جسوما وتحت من جالمنَّ رسوما
فهي لولا الاهمال والفقر كانت كسراج ينير ليلاً بهيما
كم فقير في طيها كان بنشا لو اردنا ارتقاءهُ شهماً عظيما
بأكفٍّ لصولجان أعدَّت ورؤوس بالتاج تلقى نعيما
من صغير يضيق عنهُ فضاء حلَّ لحداً لحلَّ فيه رميما

وكُتب على قبر رافائيل المصوّر الايطالي الشهير كلمات باللاتينية ختمت ببيت من الشعر عرَّبتهُ : (توفي سنة ١٥٢٠ م)

ان الطبيعة سبب الحياة تخافهُ والآن تخشى ان تموت بموته

ونظم الشاعر الفرنسوي مانرن وليه قبريتهُ (توفي سنة ١٦١٣م) فعرَّبتها نظمًا :

لقد عشتُ من دون اعتناء مجاريًا يبطئي نظامات الطبيعة خاملا
فأعجب من موتي اتاني مفكرًا بمن لم يفكر فيهِ كيف تنازلا

ونظم الشاعر فرنسيس بومونت المتوفى سنة ١٦١٦ ملخص ما كُتب على قبور مقبرة وستمنستر[1] وهذه المقطعة تعدُّ من الطبقة العالية في اللغة الانكليزية نظمتها معرَّبةً :

تأمل بالمصير وكن جزوعا فكم رمم هنا دفنت جميعا
وكم تحت الثرى عبد وضيعٌ يجاور آمنًا ملكًا رفيعا
مليكٌ ليس يطمع في فتوحٍ وصار بوحشة الشق قنوعا
أطاعتهُ الرعايا صاغراتٍ فصار لأصغر الاشيا مطيعا
ينادي منذرًا من حلَّ قبرٍ ولا يلقى لما يُلقى سميعا
يقول "دعوا اتكالكم جميعًا على مجدٍ خبتناهُ منيعا"
فهذي الارض قد زرعت ملوكًا وامسى روضها منهم مريعا[2]
تقول عظامهم للناس "ذقنا بكاسات الردى السم النقيعا"
تحوَّل جسمهم حالاً هباءً وقد ملأ البسيطة والرقيعا
وعالَمُ كل أبهةٍ وفخرٍ نراهُ مثلهم معهم صريعا

ونظم الشاعر الانكليزي الشهير شكسبير قبريتهُ قبل وفاتهِ سنة ١٦١٦ وهذا معرَّبها نقلاً عن دائرة المعارف العربية :

صاح بالله لا تشقّ حجابا عن ثرى من في ذا الضريح أقاما
يا رعى الله من رعى القبر لكن لعن الله من أثار العظاما

فامتنع الناس عند قراءتها عن نقل رفاتهِ من مقبرة سترتفورد الى مقبرة وستمنستر

ونظم بوالو الشاعر الفرنسوي الشهير لتمثال مداموازيل لاموانيون ما عرَّبتهُ نظمًا

أرى تمثال آنسةٍ تسامى فضاقت في مبادئها الاناما
وتقواها قد اشتهرت بذكرٍ لها في الخالقين بنى مقاما

---

(١) هي مقبرة الشهير التي كان اسمها القديم Thorn Island حيث كانت كنيسة سكسونية فبنيت هذه المقبرة أولاً باسم ادغار ثم دورت ورممها هنري الثالث وفيها من قبور العظماء قبور ثلاثة عشر ملكًا وخمس ملكات ثم قبور العلماء والشعراء والفلاسفة وغيرهم (٢) مخصبًا

وكانت نصرة الفقراء حتى أُذيقت في عنايتها الحماما

ونظم ايضاً قبرية والدته المتوفاة سنة ١٦٧٠ بنسانها ما عرَّبتهُ ايضاً :

انا زوج لمن تسامى اعتبارا وبحبّ للغير نالـــ وقارا
فاتفقنا على البساطة عمراً مـا عرفنا غيبةً وانتهارا
فاترك البحث هل بقي اقتدوا بي اواضاعوا هذي الصفات احتقارا
واقرإ النظم صحيحاً بصفائي وتحذَّر ان تنقل الاشعارا

وكتبت الجمعية العلمية في فرنسا على تمثال موليير الذي اقامتهُ في محل اجتماعها (توفي سنة ١٦٧٣ وهو يشخص رواية المريض الوهمي وكانت الجمعية قد رفضت قبولهُ فيها لانهُ كان يحب الهزل) ما معناهُ : « ان عدم انتظامهِ في جمعيتنا لم ينقص شيئاً من مجدهِ ولكنهُ انقص كثيراً من مجدنا »

ووجد في رومية قبرية لاتينية عرَّبتها بقولي :

بالمجد عاش وبالفضيلة قد يعيش واغا بالذكر سوف يعيشُ

ونظم لافونتين قبريتهُ سنة ١٧١١ م فعرَّبتها :

ذهبتُ كما أتيت بدون شيءٍ لعلي ان ذُخرَ المالـــ فانِ
وانفقتُ الزمان بكل حرصٍ فبين النوم والكسل الاماني

وكتب على قبر ادسون في مقبرة وستمنستر (المتوفى سنة ١٧١٩) قصيدة طويلة لخصتها بقولي :

أديسنُ في هذا الضريح ينامُ وتذكارهُ بين الشعوب يقامُ
فضيلتهُ طارت باجنحةٍ الى نعيمٍ بهِ طيبُ الخلود مرامُ
حنالك ترنيم الملائك دائمٌ يشاركهم فيهِ وليس يضامُ
محاكنا فيها السياسة انما محاكمهم فيها يسودُ نظامُ
فصبرٌ بناطرق عدلٍ وحكمةٍ توَدُّب بالاخلاص فيهِ كرامُ
بعلمنا كيف الحياة وموتنا فطاب بهِ مبدا وطاب ختامُ

ونقش على تمثال الفيلسوف الحقق نيوتن الشهير بالانيزية ما معناهُ :

« ليفتخر الاحياء ان نشأ في العالم انسان البس الناس ثوب مجدٍ لا يُظَنّ » ونقش على ضريحهِ في وستمنستر قاعدة تربيع الكيات الثنائية المشهورة في كتب الجبر وتوفي سنة ١٧٢٧

ونظم انكسيس بيرون الفرنسوي قبرية جان باتست روسو اختصر بها حياتهُ (توفي سنة ١٧٤١ م) — « هذا ضريح الشهير والتعيس روسو فالبريطان قبرهُ وباريس مهدهُ وتخصر

سيرته انهُ عاش نحو ثلاثين سنة حُسد عليها والباقي مرثية يحالة يرثى لها»

ونظم بيرون قبرية أخرى بمعرَّبها

يامن يمرُّ بقبري وهو يسألني عن الحياة وعمَّا كنتُ في القدمِ
هو الجنون اذا ما كنت منهمكاً فانت من عدمٍ تمضي الى عدمِ

ونظم روبرت برنس المتوف سنة ١٧٩٦ قبريَّة لصديق لهُ من الشعراء محصَّلها تعريباً

ليستوقف القاري لدى القبر شاعرٌ ذكيٌّ حكيمٌ للاخاء نصيرُ
ولكنها فيهِ الرعونة اثَّرت فمهما ارتقى بالمجد فهو حقيرُ
ألا قف سوالاً كنت في سرح العلى تتكرُ ام في الارض حيث قبورُ
فهل غير ضيق النفس او كسب حكمةٍ ومعرفةٍ للمكرمات جذورُ

ونظم الشاعر الفرنسوي الشهير فكتور هوغو قبرية لولد صغير دفن قرب البحر سنة ١٨٤٠ فعرَّبتها بتصرف قليل :

انتَ يا عشب الحقول الناضرهْ وزهور الروض في تلك السفوحْ
وذبابًا طنَّ بعد الهاجرهْ حاديَ الراعي الى حيث يروحْ
انتَ يا موج الخضمّ المنشدِر بلسان الريح أعلى النغماتْ
انتِ يا اشجار غاب اسودِ ثرت حزنًا عليهِ الثمراتْ
ورجومًا من اعالي الجلدِ قد ترامت فوقنا مخدراتْ
وطيورًا في غصونٍ زاهرهْ قد شفت انغامها منا الجروحْ
وسهولاً فوق ماءٍ ناشرهْ نسماتٍ عرفها الذاكي يفوحْ
وجدارًا زهرهُ المرُّ المصونْ او شهابٌ قد تجلَّى في سماهْ
وحقولاً مذ بكت فيها العيونْ بسم السنبلُ غضًّا سيفَ بهاهْ
اظهري الآن خشوعًا وسكونْ لصغير حلَّ قبرًا في صباهْ
اهرعي عن حركاتٍ ثائرهْ قد اثارت في حشا الأمِّ القروحْ
واتركي الميت قرير الباصرهْ ودعي الأمَّ على الثكل تنوحْ

ونظم الشاعر تنسون الإنكليزي قبريَّة السرجون فرنكلين الرحالة الشهير الذي مات في القطب الشمالي واقيم لهُ ضريح في مقبرة وستمنستر سنة ١٨٤٧ ما معرَّبهُ :

عظامك لم تضمّ الى ضريحٍ ولكن ضمها القطب الشمالي
ونفسك لم ترُدّ في الارض قطبًا لتكشفهُ ولكن في الاعالي

ونظم الشاعر توماس مور المتوفى سنة ١٨٥١ قبريَّة لبعض ابطال عصره . عرَّبتها ملخصةً :

بعيشك لا تهمل مدافن شجعانٍ ... لهم عزَّماتٌ أُضرمت مثل نيرانِ
فليتهمُ عادوا اتحادًا كما مضوا ... لكبح جماح الجور عن مجد اوطانِ
فانَّ ضريحًا ضمَّ ميتًا تحاميًا ... عن الوطن المحبوب في ظلِّ سلطانِ
أجلُّ من القصر الذي فيهِ جحفلٌ ... يريدون كسب النصر بلاَّ ليثانِ

ونظم هذا الشاعر ايضًا قبريَّة لاحد المنفيين عرَّبتها ايضًا :

لجا المنفيُّ من حرِّ المواجر ... الى بَرْد الظلال وكان صابرْ
فحاذر ان تسميهُ نداه ... فتوقظهُ وكان النعم ساهرْ
غيوث دموعنا تجري عليهِ ... كأنداء على عشب المقابرْ
تعاهدهُ الندى في الليل ويلاً ... ليحفظ فوق مدفنهِ الازاهرْ
كذلك دمعنا المسفوح سرًّا ... ليحفظ ذكرهُ في النفس ناضرْ

ونظم الشاعر الفرنسوي الشهير لامارتين المتوفى سنة ١٨٦٩ قبريَّةً لولدٍ عرَّبتها

كان هذا الوليدُ يحلو ابتساما ... لُبَّا لاهيًا يسرُّ الأناما
فلماذا الطبيعة الآن جارت ... وأرادت بخطبها أن يُضاما
أفلتْ طيور روضك تكفي ... ونجوم السما تنير القتاما
وزهور الرياض ترسل عرْفًا ... وزلال المياه يطفي أُواما
فأخذتِ الوليد من حضن أمٍّ ... لضريح تحت الازاهر قاما
هل رأيتِ الوليد عبأً بارضٍ ... او اخذت الصغير يقفي المراما
لا اراكِ البهيجة الآن قلبًا ... مثل أمٍّ ولو طربتِ ابتساما
ان قلب الحنون مثلكِ رُحبًا ... ملأتهُ الاكدار همًّا فهاما

ونظم الشاعر الغزلي الفرد دي موسه قبريتهُ (توفي سنة ١٨٨٠) ومعرَّبها :

اغرسوا العفصاف حول المقبرهْ ... ذا اصفرارٍ وغصونٍ مزهرهْ
إنني احببتُ ظلاً وارفًا ... منهُ فوق اللحد وهو المخفرهْ

وكُتب على قبر جورج اليوت القصصية الانكليزية المشهورة المتوفاة سنة ١٨٨٠ ابيات من قصيدة لها معناها " ايمكن ان اتمتع بالاتحاد مع جوق المرتدين من اولئك الموتى الخالدين الذين يحيون ثانية في افكارهم فيكونون افضل مما كانوا في حياتهم "

ومنهم كارنجي المحسن الاميركي الشهير ان يكتب على ضريحهِ ما عرَّبهُ بعضهم تحصلاً :

هنا رقد المرء الذي ضمَّ حولهُ رجالاً ذوي علمٍ هُمُ فيهِ اعرفُ
تعلَّم منهم جمع آثار جدِّهم وعلَّمهم كيف الدراهم تُصرفُ
افادوهُ سبقاً في ادوارهم واقادهم بان الذي يبقى من المال متلفُ

ومن اغرب القبريات ان اميركياً مولعاً بالموسيقى توفي سنة ١٩٠١ فاقامت لهُ زوجتهُ على ضريحهِ بناء ووضعت ضمنهُ فونغرافاً

وفي آخر السنة الماضية (١٩٠٥) اقام اصدقاؤه سينتون ومريدوهُ تمثالاً على ضريحهِ قاعدتهُ من الحبَّب وفوقهُ رسم الثائب المتوفى ونقشوا على قاعدتهِ اربعة ابيات من قلم المسيو بول ديرولِيد محصلها . " ان الذي يموت في سبيل وطنهِ ذكرهُ حيٌّ لا يموت "

(الخاتمة)

هذا الى غير ذلك مما جاء في الكتاب المقدس وسير القديسين وغيرهما مما لا تسعهُ المجلدات الكبيرة . ولم اقف على مقالة في هذا الموضوع سوى شذرات قليلة باللغة الانكليزية في الاحتضارات اما القبريات فلم اقف على شيء منها ولكنني اطلعت في كتاب خزائن دمشق لحبيب افندي الزيات على اسم كتابين احدهما ذكرهُ في الصفحة ٣٣ وهو الجزء الثالث من الكتاب وهو الموسوم بالعدد (٥٦) وفيهِ وصايا العلماء عند حضور الموت تأليف ابي سليمان محمد بن عبد الله بن احمد الربعي والثاني في الصفحة ٨٥ العدد الثامن وهو (اخبار الاخيار بما وجد على القبور من الاشعار) جمع احمد بن خليل البيدي الدمشقي الشافعي بخطهِ مرتب على الحروف وصل فيهِ الى حرف الهاء وفيهِ بياض كثير . وبحبذا لو نشر شيئاً منهما

وربما وجد غير هذا من الرسالات والكتب التي لم اطلع عليها ولا وقفت على اسمائها وقد فاتني كثير من الاحتضارات التي عثرت عليها بعد فوات محلها مثل قول بهاء الدين زهير وقد كتب بهِ الى محمد بن الحكيم عماد الدين الديريني وهو آخر نظمهِ :

ما قلت انت ولا سمعت انا هذا حديث لا يليق بنا
ان الكرام اذا صحبتهمُ ستروا القبيح واظهروا الحسنا

ومن ابلغ ذلك وصف ابي تمام لأخيهِ وقد حضر وفاتهُ وربما كان هذا من الاوصاف الوحيدة للمحتضر عند العرب اذ يصوِّر للسامع حالة الميت عند النزع كما ورد مثل ذلك لهوميروس في ما مرَّ :

اني اضن البلى لو كان يفهمهُ صدَّ البلى عن بقايا وجهِ الحسنِ
يا يومهُ لم تدع حسنًا ولا ادبًا الَّا حكمتَ بهِ للحد والكفنِ
لله مقلتهُ والموت يكسرها كأن أجفانهُ سكرى من الوسنِ
يردُّ انفاسهُ كرهًا وتعطفها يدُ المنيَّةِ عطف الريح للغصنِ
ياعزل ما ابصرت عيني وما سمعت اذني فلا ابصرت عيني ولا اذني
لم يبقَ من بدني جزءٌ علمتُ بهِ الَّا وقد حلَّهُ جزءٌ من الحزنِ
كان اللحاق بهِ اهنا واحسن بي من ان اعيش سقيم الروح والبدنِ

وفي الختام ارجو المعذرة عما فرط من الخطإ في النقل او الترجمة والعصمة لله وحدهُ وهو سبحانهُ وتعالى اعلم

عيسى اسكندر المعلوف

[المقتطف] كانت هذه الاحتضارات والتعزيات اكثر مما نشر فحذفنا كثيرًا منها لضيق المقام او لاننا لم نرَ فائدة خاصَّة من نشرهِ

نفائس الدلَّالين

من قبل ان قال عنترة العبسي او قيل عن لسانهِ "حسامي كان دلال المنايا تخاض غمارها وشري وباعا" كان الدلَّالون يبيعون كل علق نفيس حتى لقد باعوا مرةً المملكة الرومانية بكاملها. عرضها الحرس الخاص للبيع سنة ١٩٣ للميلاد بعد ان قتلوا امبراطورهم برتيناكس فرسا مزادها على يوليانوس احد اغنياء رومية وكان سلبشيانوس حمو برتيناكس قد عرض ان يعطي كلاً منهم ما يساوي ١٦٠ جنيهًا بمعاملتنا وهم نحو عشرة آلاف رجل فجاء يوليانوس وعرض ان يعطي كلاً منهم ما يساوي مئتي جنيه اي انهُ اعطاهم مليونين من الجنيهات ثم المملكة الرومانية فنادوا بهِ امبراطورًا

ومتى كثر الغنى تنافس الاغنياء في اقتناء التحف النادرة والاعلاق الثمينة. وقد لا يكون الشيءُ ثمينًا لذاتهِ ولا تكون منهُ منفعة ما ومع ذلك يغالي الاغنياء بثمنهِ لندرتهِ ولانهم يتوخون الامتياز بهِ على غيرهم. والظاهر ان الانكليز والاميركيين فاقوا الناس اجمع بالمغالاة بما هو نادر فاذا وقف دلَّال مشهور من دلاليهم وعرض شيئًا نادرًا او منقطع النظير تسابق اغنياؤهم الى ابتياعهِ وتزايدوا بالمئات والالوف كأن الذهب صار ترابًا. فما يتنافسون فيهِ ويغالون بثمنهِ بيض الاوك وهو طائر انقرض منذ ستين سنة وعثروا على نحو سبعين بيضة